مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة - إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

تصدر سنويا عن

كلية الدعوة الإسلامية

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 – 1440 الهجرية الموافق: 2017 – 2018 الميلادية

حضور اللغة العربيّة في الموروث الثّقافي الأندلسي

أ.د. رمضان سعد القماطي
جامعة طرابلس - ليبيا

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خير خلق اللَّه أجمعين، محمد بن عبد اللَّه الصادق الأمين، أفضل من نَطَق بالضَّاد، ومحا الظُّلمة من صُدور العِباد، وبعد:

فَمِن خِلال تَجربة طويلة مع اللُّغة العربيَّة، اتّضح أنَّها في كلِّ مرحلة من مراحل التاريخ تنحدر إلى هُوَّة سحيقة يبدو الخُروج منها يتطلَّب زمناً مديداً.

ذلك التدنِّي في المُستوى اللُّغوي نَجِده في كُلّ مجالات الحياة، وخاصَّة في تلك الأماكن التي أوكلت إليها مُهمَّة الحِفاظ على اللُّغة العربيَّة بكُلّ فروعها؛ نَحْوها، وصَرْفها، وآدابها، وأرباب اللُّغة العربيَّة لم يجدوا في هذا الزمان سِوى التباكي على ماضيها الجميل؛ فأخذوا يُردِّدون في كُلّ مَحْفل لُغوي قول الشاعر حافظ إبراهيم واصفاً حال العربيَّة:

وَسِعْتُ كتاب اللَّه لفظاً وغاية　　　وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة　　　وتنسيق أسماء لمُخترعات[1]

بينما نجد في المُقابل أنَّ اللُّغة العربيَّة في زمن تولَّى؛ قد ارتقى بها

(1) **ديوان حافظ إبراهيم**، ضبط وتصحيح أحمد أمين وآخرين، ص253.

الحال في عُصور الازدهار الحضاري، من بغداد شَرقاً إلى بلاد الأندلس غَرباً، نجدها حاضرة، بكُلّ قُوَّة، في قُصور الحُكام، وكُتَّاب الرسائل الدِّيوانيَّة، وكتب المجاميع الأدبيَّة، ومجالس العِلْم في المَدَارس، والمساجد، والجامعات، كما نالت حُظوة بالغة الأهمِّيَّة عند غير المسلمين؛ حيث أقبل على تعلُّمها شباب النَّصارى من مُختلف بلدان أُوروبَّا، وعشقهم للُّغة العربيَّة جعلهم ينصرفون عن لُغتهم الأصليَّة، وهو أمر جعل قساوسة النَّصارى يُعبِّرون عن فزعهم وخوفهم من ضَياع لُغتهم ودينهم، وقد عَبَّر أحدهم عن هذا المَعْنى فقال مُتباكياً: «إنَّ إخواني في الدِّين يجدون لَذَّة كُبرى في قراءة شِعر العرب وحكاياتهم...، لا ليردُّوا عليها وينقضوها، وإنَّما لكي يكتسبوا من ذلك أُسلوباً عربيّاً جميلاً صحيحاً، وأين نجد الآن واحداً من غير رجال الدِّين يقرأ الشروح اللَّاتينيَّة التي كُتبت على الأناجيل المُقدَّسة».

وقال أيضاً: «إنَّ الموهوبين من شُبَّان النَّصارى لا يعرفون اليوم إلَّا لُغة العرب...، وهُم يُنفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويفخرون في كُلّ مكان بأنَّ هذه الآداب حقيقة بالإعجاب»(1).

ليس هذا فَحَسب بل شِدَّة إعجاب شُبَّان النَّصارى باللُّغة العربيَّة أنساهم لُغتهم الأصليَّة بحيث «لا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أنْ يكتب إلى صاحب له كِتاباً سليماً من الخطأ، فأمَّا عن الكِتابة في لُغة العَرَب فإنَّك واجد فيهم عدداً عظيماً يُجِيدُونها في أُسلوب مُنمَّق، بل هُم ينظمون من الشِّعر العربي ما يفوق شِعر العَرَب أنْفسهم فنّاً وجمالاً»(2).

والعديد من النُّصوص الأندلسيَّة تؤكد أنَّ اللُّغة العربيَّة اكتسبت زمام الرِّيادة والسِّيادة على باقي اللُّغات في الأندلس، وخاصَّة إذا علمنا بأنَّ تلك البلاد كانت قِبلة للعديد من الأقوام في زمن الحُضور العربي والإسلامي، إلى جانب ما فيها من سُكَّان أصليين، ومع مُرور الأيام «كان أهل الأندلس

---

(1) **تاريخ الفكر الأندلسي**، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، ص485.

(2) المصدر نفسه، ص286.

يستعملون العربيَّة الفُصْحى لُغةً رسميَّة يتعلَّمها الناس في المَدَارس، ويكتبون بها الوثائق وما إليها»[1] وإلى جانب ذلك فقد «كان الإسبان يكتبون صُكوكهم ومُعاملاتهم اليوميَّة باللُّغة العربيَّة التي ظلَّت لُغة الثقافة عند الإسبان إلى ما بعد الجَلاء العربيّ عن الأندلس»[2] والدَّليل على سيادة اللُّغة العربيَّة والإقبال على تعلُّمها، والنُّبوغ في صِناعتها من، جميع الأجناس؛ ما قيل عن قومس بن أنتنيان الذي أسلم بعد سنة مائتين وستة وأربعين للهجرة، وكان على صِلة بأحد أفراد الدَّولة الأمويَّة بالأندلس، ثم ولَّاه الكتابة، ولا يتولَّى الكتابة في ذلك الزمن إلا من تفوَّق في عُلوم العربيَّة[3].

لعلّ في هذه التوطئة ما يُشجِّع على الكتابة في هذا الموضوع الذي يشغل بال الكثيرين في هذا الزمن، وخاصَّة من قِبَل أولئك الغيورين الَّذين يُدركون ما للُّغة العربيَّة من أهمِّيَّة باعتبارها تُمثِّل الهُويَّة العربيَّة، وحرز الدِّين المتين، ولا قِيمة للعربي من دون لِسانه المُبين، ومَهْما حَاول العربيُّ أنْ يرطن بغير لُغته، وأبدع في رطانته؛ فهو شخص مُستقبح في عُيون السَّامعين؛ لأنَّه قَلَّد ألسُنَ الآخرين، ونسي لِسانه، ولكي تتَّضح معالم هذا الموضوع تمَّ تقسيمه إلى المباحث الآتية:

المبحث الأوَّل: سرُّ انتشار اللُّغة العربيَّة في ربوع الأندلس، وله مطلبان:

المطلب الأول: انتشار الإسلام، والمطلب الثَّاني: انتشار التعليم ومجانيَّته.

المبحث الثَّاني: منزلة أرباب اللُّغة بين الحكَّام والرعيَّة، وله مطلبان:

المطلب الأوَّل: اللُّغة العربيَّة في قُصور الحُكَّام، والمطلب الثَّاني: مكانة اللُّغة العربيَّة بين عُموم النَّاس.

---

(1) **الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي**، محمد سعيد الدغلي، ص35.

(2) المرجع نفسه، ص37.

(3) يُنظر: **التاريخ الأندلسي**، عبد الرحمن علي الحجيّ، ص166. **المقتبس**، لابن حيان، 2/ 142.

المبحث الثَّالث: من مؤلفات الأندلسيين في عُلوم العربيَّة، وله مطلبان:

المطلب الأوَّل: كُتب النحو، والمطلب الثاني - كُتب المجاميع الأدبيَّة.

ونشرع الآن في مُعالجة هذه المباحث على النحو الآتي.

المطلب الأوَّل من المبحث الأوَّل: انتشار الإسلام.

دخل الفاتحون إلى بلاد الأندلس، والإيمان بالدِّين الإسلامي يَعْمر قُلوبهم، بل فاضت به أحاسيسهم ومشاعرهم؛ الأمر الذي دعاهم إلى الإشفاق على أهل البلاد المَفْتوحة، وخاصَّة عندما رأوهم يتخبَّطون في ظُلمات الجَهَالة، والابتعاد عن سبيل الرَّشاد؛ فشرعوا ينشرون الدِّين الإسلامي بشتّى الطُّرق، ومن أهمِّها الدَّعوة بالمقال، فحال الفاتحين أمام الناس ينبىء عن صدق إيمانهم بربِّهم، وتطبيقهم لشرائع دينهم، كما أوجبها اللَّه، سبحانه وتعالى، فهم قمَّة في الصِّدق، والإخلاص، والمحبَّة، والعطف، ولين الجانب، وهذه كُلّها خِصال حميدة تُرغِّب الناس في الاقتداء بهؤلاء الفاتحين الجُدد «وكان من نتائج حُسن المُعاملة الإسلاميَّة ازدياد الصِّلات والاختلاط مع غير المسلمين من الإسبان بشكل قاد إلى بعض المُصاهرات معهم»[1].

وممَّا لا شكّ فيه أنَّ التصاهر يعد المرحلة الأُولى من مراحل انتشار لُغة الفاتحين بين سكَّان البلاد؛ لأنَّ لُغة الغالب دائما أقوى من لُغة المغلوب.

وفي الجانب الآخر تأتي الدَّعوة بالمقال، وهُنا يبرز الخطاب اللُّغوي، ولا سبيل بديلاً عن استعمال اللُّغة العربيَّة؛ لكي تصل نُصوص الدِّين الإسلامي وتعاليمه إلى أرباب اللُّغات الأُخرى، وكما هو معروف فإنَّ قواعد الدِّين الإسلامي يصعب تطبيقها من غير فهم للُّغة العربيَّة، فلا نُطق بالشهادتين إلَّا بالعربيَّة، ولا صِحَّة للصَّلاة من دون حِفظ لبعض السُّور والآيات القرآنيَّة.

(1) **التاريخ الأندلسي**، عبد الرحمن الحجِّي، ص158.

وهذا ما فعله الفاتحون الجُدد، وخاصَّة الدُّعاة منهم عندما شرعوا في تحفيظ القُرآن الكريم لسكَّان البلاد الأصليين، وتؤكِّد العديد من المصادر الأندلسيَّة أنَّ أعداداً من نَصَارى إسبانيا قد دخلوا الإسلام وَحَسُنَ إسلامهم، هذا ما أكَّده أحد المُستشرقين عندما قال: «كانت غالبيَّة الشعب في إسبانيا من الإسبان الذين اعتنقوا الدِّين الإسلامي. . . ، وهؤلاء الذين اعتنقوا الدِّين الإسلامي قد يكونون من اليهود، أو من الجِنس الأيرو روماني»[1].

وبالرَّغم من اختيارهم لأسماء عربيَّة بعد اعتناق الإسلام؛ إلَّا أنَّ في ألقابهم ما يدلّ على جُذورهم الإسبانيَّة، ومن هؤلاءِ ابن قومس، وابن رولان، وابن شِبرقة، وابن حسداي، وابن القَبطُورْنه[2]، وتقول بعض المصادر الأندلسيَّة: إن ابن حزم الفقية الأديب المؤرخ الذائع الصِّيت إسلام جدّه لم يكن مُبكراً «عهده الناس خامل الأُبوَّة مولّد الأرومة من عجم لبلة[3] جدّه الأدنى حديث عَهْد بالإسلام»[4].

وهؤلاء الأعلام الذين أُصولهم غير إسلامية؛ تفوّق العديد منهم في اللُّغة العربيَّة، وأتقنوها، لا بل جلسوا للإقراء وتعليم أبناء الخَواص والعَوام عُلوم العربيَّة والدِّين.

وجُلّ العُلماء الذين ورد ذكرهم في المصادر الأندلسيَّة، سواء الراحلين منهم إلى الشرق لطلب العِلْم، أو أولئك الذين مكثوا في بلادهم؛ نالوا من المعارف نصيباً وافراً، وتأتي اللُّغة العربيَّة في مُقدِّمة ذلك، وهذا يدلّ على أنَّ العربيَّة هي مِفتاح بقيَّة المعارف، فمن أراد منهم أنْ يتحصَّل على زاد معرفي

---

(1) **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، هنري بيريس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ص231.

(2) لهذه الألقاب دلالة نصرانيَّة، فكلمة القبطورنه معناها بالإسبانيَّة: الرأس المدورة، يُنظَر: **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، هنري بيريس، ص232؛ **والتاريخ الأندلسي**، عبد الرحمن الحجِّي، ص164 وما بعدها.

(3) لبلة: قصبة بالأندلس، غرب مدينة قرطبة، وهي مدينة بريَّة بحريَّة، **معجم البلدان**، 5/ 10.

(4) **الذخيرة** لابن بسام، 1/ 1/ 170، **ومطمح الأنفس**، لابن خاقان، ص279.

وفير في شتَّى العُلوم، كالفقه، وعُلوم القرآن، والطِّب، والرياضيَّات، والفلسفة؛ عليه أنْ يمتلك ذلك المِفتاح، وهو الإلمام باللُّغة العربيَّة، ومن أولئك الأعلام الذين نبغوا في معارف شَتّى أساسها العربيَّة ابن خضر[1]، قالوا عنه: «كان في مُقدِّمة أعلام عَصْره في الفِقه، واللُّغة، والأدب، فكان فقيهاً مُتمكِّناً...، وكان حافظاً للُّغة أديباً، وكاتباً بليغاً، وله كذلك حظ من قرض الشِّعر»[2] ومنهم -أيضاً- مُصعب بن محمد الخشني[3] الذي «برع في العربيَّة، وتبوأ رياستها في عصره...، هذا مع مُشاركته في الآداب واللُّغات، وقرض الشِّعر، ولي الخطبة بجامع إشبيلية وقتاً»[4]، وبطبيعة الحال لا يتولَّى الإمامة والخطابة إلَّا من كان مُتمكِّناً من عُلوم العربيَّة والدِّين.

ومن الأعلام الذين برزوا في عُلوم العربيَّة، إلى جانب عدَّة معارف أُخرى، أبو علي الشلوبين[5] الذي نبغ في عُلوم العربيَّة، وكان إمامها بالمَشْرق والمَغْرب، وكان ذا معرفة بنقد الشِّعر[6].

ونجد من العُلماء من درس اللُّغة العربيَّة، ومن بعدها تفوَّق في علوم الطِّبِّ، ومن هؤلاء عبد اللَّه بن أحمد[7] الذي درس الحديث والعربيَّة، والأدب، ومن بعدها مال إلى علم الطِّب، وعني به، ومهر فيه[8].

---

(1) هو محمد بن علي بن خضر بن هارون الغسّاني، من أهل مالقة؛ يُعرف بابن عسكر يُنظر: **التكملة** لابن الأبار، 2/ 641؛ **والإحاطة**: 2/ 172، **وأعلام مالقة**، ص175.

(2) **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، محمد عبد الله عنان، 2/ 674 وفي كتاب **أعلام مالقة**، تحقيق عبد اللَّه الترغي حديث مُستفيض عن مكانة ابن عسكر العلميَّة، ص175.

(3) هو مصعب بن محمد بن مسعود الخشني، **التكملة** لابن الأبار رقم 1785.

(4) **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، محمد عبد الله عنان، 2/ 684.

(5) أبو علي الشَّلوْبين، هو عمر بن محمد الشَّلَوْبيني، أبو علي كان يُلقَّب بإمام النُّحاة بالأندلس، يُنظر ترجمته في: **المغرب في حُلَى المغرب**: 2/ 129، **ونفح الطيب**: 1/ 221، **ووفيات الأعيان**: 3/ 451، **والمعجم المفصّل في اللغويين العرب**: 1/ 506-507.

(6) **عصر المرابطين في المغرب والأندلس**، محمد عبد الله عنان: 2/ 686-687.

(7) المصدر نفسه، 2/ 714.

(8) هو محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن القرشي الزهري، من أهل إشبيلية توفِّي 623هـ، ينظر ترجمته في: **التكملة** رقم 1618.

هؤلاء ثُلَّة من العُلماء، وغيرهم كثير، الذين كانت اللُّغة العربيَّة سبيلهم إلى الارتقاء في سُلَّم المعارف بكل أنواعها، ويتعجَّب الغَيور على لُغته في هذا الزَّمان من أولئك الظَّانِّين باللُّغة العربيَّة ظنَّ السُّوء، مُعتقدين أنَّها ليست لُغة العِلْم والحضارة، وربَّما سُوء الظنَّ هذا يعود إلى كَوْنهم لم يعودوا إلى ذلك الموروث المَعْرفي الذي تركه عُلماء العروبة والإسلام في عُصور البهاءة، وفي أحوالهم هذه يصدق عليهم قول ابن بسام صاحب الذخيرة مُتعجِّباً من أحوال بلاده بعد أن عادت بُدُورُه أهِلّة، وأصبحت بحاره ثماداً[1] مُضْمحلَّة[2].

المبحث الأوَّل، المطلب الثاني: انتشار التعليم.

أدرك الأندلسيون بوحي من القُرآن الكريم بأنَّ العِلْم هو أساس البِناء المَعْرفي للإنسان، فلا تكتمل سعادة المرءِ في الدَّارين إلَّا بالعلم، فالتوجيه القُرآني، اقتباساً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[3] هو الذي جعلهم يُفكِّرون، بعد أنِ استقرَّت أوضاعهم في الأندلس، في إيجاد طرائق للتعليم، وكان المسجد هو المكان المُفضّل لتلقِّي مبادئ القراءة والكتابة، وحِفظ القُرآن الكريم، يقول ابن خلدون في هذا الشأن: «وأمَّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن الكريم من حيث هو، وهذا الذي يُراعونه في التعليم، إلَّا أنَّه لمَّا كان القُرآن أصل ذلك وأُسَّه ومنبع الدِّين والعِلْم؛ جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشِّعر في الغالب والترسيل، وأخذهم بقوانين العربيَّة، وحِفظ وتجويد الخَط والكتاب»[4].

وهذه المُقرَّرات الدِّراسيَّة التي يتلقَّاها المُبتدئ من القرآن، وعُلوم العربيَّة، والخَط، وحِفظ الشِّعر؛ هي الأساس، ويتمّ ذلك في حَلقات الدَّرس التي تُعقد في المساجد، ولا تتقيَّد بزمن مُحدَّد، بل قد تتواصل اليوم كُلّه،

(1) الثماد: مفردها الثمد، وهو المكان يجتمع فيه قليل الماء، **المعجم الوسيط** مادة (ثمد).
(2) يُنظر: **الذخيرة** لابن بسام: 1/ 1/ 12.
(3) سورة فاطر، من الآية: 28.
(4) **مقدمة ابن خلدون**، ص689.

وعن ذلك يقول ابن عميرة المخزومي عن أحد شيوخه: «إنَّه كان يُجالسه ليل نهار، ولم يكن يخلو ساعة من مُذاكرته»[1]، وتقول المصادر الأندلسيَّة: إنَّه «كان اختلاف الطَّلبة إلى مجالس شيوخهم التي كانت تعقد في المساجد من بعد صَلَاة الصُّبح إلى صَلَاة العِشاء»[2].

ومن المُفيد الإشارة في هذا المَقَام إلى أنَّ من المترددين على هذه المجالس التي تُعْقَدُ في المساجد عدداً من عُلماء أُوروبا وطُلَّابها رَغبة منهم في دراسة اللُّغة العربيَّة وتراث اليونان الذي ترجمه العَرب[3].

وإلى جانب المساجد وحَلقات الدَّرس التي تعقد بِصُحونها؛ توجد -أيضًا- الكتاتيب والمَحَاضر، ونظراً إلى أهمِّيَّة هذه الأماكن التعليميَّة فقد اهتمّ الأندلسيون بإنشائها؛ حيث افتتحت منذ عَصْرها الأوَّل، وتواصل بناؤها في الحِقب التالية.

ومن أساليب نَشْر المعرفة بين الأندلسيين المَجَالس العِلْميَّة التي تُعقد في قُصور الحُكَّام، وفي بيوتات المشايخ، والفقهاء، والعُلَماء، وكان حُكَّام الأندلس حريصين على استقطاب العُلماء، وخاصَّة أولئك الذين لهم نُبوغ معرفي في عُلوم اللُّغة والأدب، ولا يكون طالب العلم مُتمكِّناً من عُلوم العربيَّة والدِّين إلَّا إذا تلقَّى تعليمه على شُيوخ ومُعلِّمين أكفَاء لهم دراية بأُصول اللُّغة والدِّين، وفي هذا الشأن قال ابن حيان الأندلسي ساخراً من أولئك الذين يدَّعون العِلْم من دون أنْ يكون لهم أشياخ:

أمُدَّعياً عِلْماً ولست بقارئ كتاباً على شيخ به يسهل الحَزْنُ

وإنَّ الذي تبغيه دون مُعَلّم كَمُوقد مصباحٍ وليس له دُهْنُ[4]

(1) أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، ص78.

(2) ابن حريق البلنسي، حياته وآثاره، ص18.

(3) يُنظر: أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، ص62.

(4) نفح الطيب، المقري التلمساني، 2/ 568.

وقال أندلسي آخر مرغباً في تلقِّي العِلْم على مشايخ هذه الصِّناعة:

إذا رمـت الـعُـلـوم بـغـيـر شيـخ ضللت عن الصِّراط المُستقيم

وتـلـتـبس الأُمـور عـلـيـك حتـى تصير أضلّ من توما الحكيم(1)

والتبحُّر في عُلوم العربيَّة وآدابها يتطلَّب تلقِّي معارفها على عدد كبير من عُلمائها في أمدٍ طويل من السِّنين قد يصل أحياناً إلى أربعين سنة(2)، ومن الأفضل في هذا الصَّدد الإشارة إلى أنَّ في مجلَّة الهَدْي الإسلامي العَدَد الثَّامن بحثاً بعنوان مجالس العِلْم وألقاب العُلماء في الأندلس، وفيه حديث مُستفيض عن الأسباب التي جَعلت الأندلسيين مُبرزين في كافَّة المعارف، وخاصَّة عُلوم اللُّغة العربيَّة والدِّين.

المبحث الثَّـاني
مَنْزلة أرباب اللُّغة العربيَّة بين الحُكَّام والرَّعيَّة

المطلب الأوَّل: اللُّغة العربيَّة في قُصور الحُكَّام

في جميع عُصور الأندلس نجد لأرباب اللُّغة المُتمكِّنين من صَنعتها مَنْزلة رفيعة بين الحُكَّام وعوام الناس، فالحُكَّام في عُصور الأندلس كانوا يميلون إلى اللُّغة العربيَّة باعتبارها أمّ العُلوم، ويجمعون حَوْلهم الأُدباء والشُّعراء، ويجزلون لهم الصِّلات، وتجرى المُرتَّبات على من نَبَغَ في ميدان اللُّغة والأدب، بل هُناك من الحُكَّام من خصَّص يوماً من أيام الأُسبوع لا يُقابل فيه إلَّا شاعراً وأديباً.

وكذلك الحال بالنِّسبة لأولئك الذين يَمْهرون في كتابة الرسائل الدِّيوانيَّة، فقد كانت لهم مكانة خاصَّة، وحَظّ في القُلوب والعُيون، وكان أهل الأندلس كثيري الانتقاد لِصَاحب هذه الصَّنعة، لا يكادون يغفلون عن عَثراته لَحْظة، فإنْ

(1) نفح الطيب، 2/ 564.
(2) يُنظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، ص66.

كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جَاهه ولا مكانه من سُلطانه من تَسَلُّط الأَلْسن في المَحَافل، والطَّعن عليه وعلى صَاحبه، وبِمَا أنَّ كاتب الرسائل قريب من مجالس الحُكَّام؛ فلا يكون نَصرانيّاً، ولا يهوديّاً، وهذا دليل على أنَّ هؤلاء الصِّنف من الناس كانوا يُتقنون صَنعة الكتابة باللُّغة العربيَّة، إلَّا أنَّ الحُكَّام كانوا يتحاشونهم حِفاظاً على أسرار الدَّولة[1]، وإلى جانب ذلك فإنَّ هذه الحِرفة تحتاج إلى عُظماء الناس ووجوههم، ويعني ذلك أنَّ من شُروط تولِّي كتابة الرسائل أنْ يكون الكاتب مُلمّاً بأُصولها وهذا ما فعله المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة عندما وصلته رسالة من حريز بن عكاشة[2]، فكتب إليه مُعلقاً: «وقد عهدناك مُنتقياً لأُمورك، نَقَّاداً لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجِلْف، وأسندت إليه الكتب عنك دون أنْ تطّلع عليه، وقد عَلِمت أنَّ عُنوان الرجل كتابه، ورائد عَقله خطابه»[3]، وفي هذا التعليق ما يُشير إلى أنَّ الكاتب لم يُحسن اختيار الألفاظ المُعبِّرة عن المعنى المُراد إبلاغه في أحسن عِبارة، وكذلك ما يُشير إلى أنَّ قُرَّاء الرسائل من القُواد والأُمراء، وأصحاب المعالي على دراية كبيرة بأسرار اللُّغة ودقائق معانيها، إذاً فأين نحن من ذلك الزمن الغابر الذي اجتمعت فيه مَهرة الكُتَّاب ونوابغ القُرَّاء.

وكان الأندلسيون في عَلاقاتهم الرسميَّة، والمُراسلات الإداريَّة لا يستخدمون إلَّا العربيَّة الفُصحى، وكبار رجالات الدَّولة يرون ذلك مسألة نَخْوة، كما يطلب من القُضاة والوزراء أنْ يكونوا مُتمكِّنين منها بِعُمق[4].

ومن الأمثلة التي تؤكِّد تَمكُّن رجالات الدَّولة من اللُّغة العربيَّة، وتَزَوُّدَهم

(1) يُنظر: **نفح الطيب**، 1/ 217ـ221.

(2) هو حريز بن حكم بن عكاشة، تولَّى مقاليد الأُمور في قلعة رباح التابعة لمدينة طليطلة توفِّي سنة 480هـ، يُنظر: **الحلة السِّيراء**، 2/ 176 وما بعدها.

(3) **نفح الطيب**، 3/ 560.

(4) يُنظر: **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، هنري بيريس، تحقيق الطاهر أحمد مكي، ص28.

بزادٍ وفير منها؛ ما يُحكى عن الوزير ابن زيدون[1]؛ حيث إنَّه لما توفِّيت ابنته، وبعد الفراغ من دَفْنها، وقف للنَّاس عند مُنصرفهم من الجَنَازة ليتقبَّل تعازيهم، فقيل: «إنَّه ما أعاد في ذلك الوقت عِبارة قالها لأحدٍ»[2]، ومقام ابن زيدون رفيع بين النَّاس، فلا بدَّ أن يكون أعداد المُعزِّين الحاضرين يفوق ما نتصوَّر، وقد علَّق أحد مؤرخي الأدب على هذا الموقف، فقال: «وهذا من التوسُّع في العِبارة، والقُدرة على التَّفنُّن في أساليب الكلام»[3].

المطلب الثَّاني: مكانة اللُّغة العربيَّة بين عُموم النَّاس

جُلّ المصادر التي فيها حديث مُستفيض عن الثقافة الأندلسيَّة بكل أشكالها، لا فَرْق في ذلك بين أقوال المؤلفين العرب أو غيرهم من المُستشرقين؛ تؤكد أنَّ سُكان الأندلس بكل أجناسهم وأعراقهم ميّالون إلى اللُّغة العربيَّة، حيث إنَّ مُعظم العُلماء والفُقهاء، والأعيان ينتسبون إلى العرب[4] وانتشرت بين الأندلسيين العديد من المعارف والعُلوم، إلَّا أنَّ النحو عندهم في نِهاية عُلوم الطبقة، وكُلّ عالم في أيِّ علم لا يكون مُتمكِّناً من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق؛ فليس عندهم بمُستحقّ للتميز، ولا سالم من الازدراء[5].

كما تمتع الأندلسيون بذواكر قويَّة في الحِفظ والاهتمام بمُتون اللُّغة العربيَّة، وإعجاب بعض الدَّارسين بما لأهل الأندلس من مَقْدرة على الحِفظ؛ ذهب بهم القول: لو كانت الأندلس مكان العِراق، وفي جِهة من البادية ما ضاع حَرف من اللُّغة[6]، وهذا واحد من عُلماء اللُّغة القادمين من المشرق، وهو

(1) هو أحمد بن عبد اللَّه بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، توفِّي سنة 463هـ، يُنظر: ترجمته في **الذخيرة** لابن بسام، 1/ 2 / 336، وقلائد العقيان، ص 175، ونفح الطيب: 1/ صفحات متفرقة.

(2) **نفح الطيب**، 3/ 565.

(3) المصدر نفسه، 3/ 565.

(4) يُنظر: **تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي، 3/ 259.

(5) يُنظر: **نفح الطيب**، 3/ 103.

(6) يُنظر: **تاريخ آداب العرب**، 3/ 313.

أبو علي القالي[1] يشهد بتفوُّق الأندلسيين في شَتَّى المعارف والفُنون، وخاصَّة عُلوم العربيَّة، فيقول إذا استعصى عليه الجواب من سائل يسأله: «إنَّ عِلْمي عِلْم رواية، وليس بِعِلْم دراية، فخذوا عنِّي ما نقلت»[2]، ونتيجة لعشق الأندلسيين للُّغة العربيَّة فإنَّ الفرد منهم إذا كتب أجاد، وإذا خطب سلب الألباب، وإذا تصدَّر المجلس عن كُلِّ مسألة أجاب إجابة صِدق لا مرية فيها ولا ارتياب.

ولا يختصُّ الإبداع اللُّغوي بفئة مُحدَّدة من المُجتمع، بل تَمكُّنهم من العربيَّة جعل الكثيرين منهم يقرضون الشِّعر، يُحسنون نَظْمه وإنشاده من جميع الطَّبقات: فلاحين، وتُجَّاراً، وصُنَّاعاً، ونساء، وتأكد هذا من خِلال قول الخطيب القزويني عن مدينة شلب[3]: «قَلَّ أنْ نرى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب، ولو مَرَرت بفلَّاح خلف فدَّانه، وسألته عن الشِّعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأيِّ مَعْنى طلبت منه»[4].

وعِشْق الأندلسيين للُّغة العربيَّة جعلهم يتبحَّرون في عُلومها، ويُدقِّقون في عويص مسائلها، ومُرادهم من ذلك هو استنباط قواعد لغويَّة ربَّما غابت عن أذهان المَشَارقة، وهذا ما حُكِي عن ابن المناصف[5] النَّحوي الذي بَسَط القول في إحدى المسائل النَّحويَّة؛ بحيث تناولها في مائه وثلاثين وجهاً، وبلغ عدد كراريسها عشرين كرَّاساً، بل ربَّما سُئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مُطالعة ونظر، ولكنَّه لم يَعُد في ذلك إلَّا إلى فكره، ولا تحتاج معه إلى زيادة[6]، وأعجب من ذلك ما حكاه صاحب النفح عن ابن

---

(1) هو إسماعيل بن القاسم البغدادي، صاحب كتاب **الأمالي**، يُنظر ترجمته في: **نفح الطيب**: 3/ 70.

(2) **الذخيرة**، لابن بسام، 1/ 1/ 15، ونفح **الطيب**، 3/ 155.

(3) شلب: بكسر الشين مدينة بغربي الأندلس، **معجم البلدان**، 3/ 357.

(4) **معجم البلدان**، 3/ 357-358.

(5) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المناصف، من شيوخ العربيَّة وواحد زمانه، تولَّى قضاء دانية وغيرها من المُدن الأندلسيَّة، توفِّي سنة 627هـ. يُنظر: **المغرب في حلى المغرب** لابن سعيد: 1/ 106، ونفح **الطيب**: 4/ 141.

(6) **نفح الطيب**: 4/ 141.

دحية[1]؛ حيث قال: «وكان من أحفظ أهل زمانه باللُّغة حتى صار حُوشي اللُّغة عنده مُستعملاً غالباً...، ولا يحفظ الإنسان من اللُّغة حُوشيها إلَّا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مُستعملها»[2]، ويقول الرافعي: «ولا يحفظ الإنسان حُوشي اللُّغة إلَّا وذلك زكاة محفوظه من مُستعملها»[3]. وأمَّا فيما يتعلَّق بأصحاب المِلل الأُخرى من نَصَارى ويهود؛ فقد كان حُبهم للُّغة العربيَّة يفوق كُل وصف، ولعلَّ فيما يرويه أصحاب السِّير والتاريخ ما يُشير إلى تمكُّن لُغة الضّاد من نُفوس هؤلاء الأغراب عن اللُّغة، ونجد في بعض التعابير ما يُشير إلى أنَّهم جميعاً، بغضِّ النَّظر عن مراتبهم الاجتماعيَّة، قد أتقنوا اللُّغة العربيَّة، ومن هؤلاء ألفونسو السَّادس[4] الذي أقام زمناً في طليطلة أيام الحِكم العربي لهذه المدينة «وكان للثقافة العربيَّة عنده منزلة تتمثَّل في الحاشية التي اتَّخذها...، وكان له كتاب يُحرِّرون الرسائل العربيَّة»[5].

وشاعت العربيَّة الفُصحى بين الإسبان حتى إنَّ المسيحيين منهم الذين كانوا يعيشون بين العرب يؤثرون استعمال لُغة العرب، وقد بلغ من نسيان هؤلاء المُستعربين لُغتهم وشَغَفهم بالعربيَّة أنَّهم كانوا يَنظِمون من الشِّعر العربي ما يفوق شِعر العَرَب أنفسهم[6]، ليس هذا فَحَسب بل تُطالعنا بعض المصادر الأندلسيَّة بأخبار تدلّ على انبهار النَّصَارى بلُغة العَرَب؛ حيث كَثُر استعمالهم لها، وتسَرّبت العديد من مُفرداتها إلى اللُّغة الإسبانيَّة حتى بلغت أكثر من سبعة

---

(1) هو أبو الخطاب ابن دحية، مجد الدِّين بن عمر بن الحسن بن علي، كان من أحفظ زمانه للُّغة، يُنظر: **نفح الطيب**: 2/ 99، **وفيات الأعيان**: 3/ 121.

(2) **نفح الطيب**: 2/ 99.

(3) **تاريخ آداب العرب**: 3/ 314.

(4) ألفونسو السادس أحد قادة الإسبان استولى على طليطلة سنة 478هـ/ 1085م، وفي عهده أصبحت المدينة المركز الذي انتشرت منه الثقافة العربيَّة واليهوديَّة إلى باقي نواحي إسبانيا وأُوروبَّا يُنظر: **نفح الطيب**: 4/ 463، **والتاريخ الأندلسي**، ص331، **وتاريخ الفكر الأندلسي**، ص536.

(5) **الإسلام في إسبانيا**، لطفي عبد البديع، ص168.

(6) يُنظر: **فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة**، حكمة الأوسي، ص40 **وتاريخ الفكر الأندلسي**، ص485.

عشر بالمائة من معجمها، إلى جانب وجود العديد من التراكيب، والتعابير اللُّغويَّة التي تُرجمت حرفيّاً عن العربيَّة، وتُعبِّر عن المعنى نفسه في الإسبانيَّة، إلى جانب وجود العديد من الأمثال الإسبانيَّة تُشبه في معناها أمثالاً بالعربيَّة الفُصْحى[1].

نعم، لقد شَهِد شاهد من أهل اللُّغة الإسبانيَّة بِصِحَّة ما أوردناه من خِلال المصادر بأنَّ اللُّغة العربيَّة تمكَّنت من اللِّسان الإسباني؛ حيث اعتنى بعض المُستشرقين من خِلال دراساتهم الأندلسيَّة، وخاصَّة فيما يتعلَّق بتأثير العربيَّة في اللُّغة الإسبانيَّة والبرتغاليَّة؛ فقاموا بوضع معاجم لُغويَّة تتبَّعوا فيها الكلمات الإسبانيَّة المُقترضة من اللُّغة العربيَّة، ومنهم من أكَّد بأنَّ اللُّغة الإسبانية وجدت نفسها مُضطرة إلى الأخذ من اللُّغة العربيَّة لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة التي أوجدتها الحضارة العربيَّة والإسلاميَّة في الأندلس[2].

وحُضور اللُّغة العربيَّة في الثقافة الإسبانيَّة لم يكن مُرتبطاً بوجود العَرَب والمسلمين في تلك الدِّيار، وعندما خرجوا منها انتهى كُلّ شيء؛ بل ظَلَّ الإسبان «يستعملون هذه اللُّغة زمناً طويلاً...، وظلوا يكتبون بلُغة العَرَب وقائعهم، ويتسمون بأسماء عربيَّة»[3].

ليس هذا فَحَسب بل «تشيع بين الإسبان اليوم أسماء عربيَّة صريحة، مثل: فاطمة، ونورية، وبكر، وحسن»[4].

ونستحضر هُنا بعض الأمثلة التي تدلّ على أنَّ اللُّغة العربيَّة قد بلغت من القُلوب مَبْلغاً عظيماً بحيث تَمكَّن الأندلسيون من توظيفها في العديد من المواقف الحياتيَّة، فهد أبو أمية ابن حمدون[5] يقف بباب الشلوبين، ويكتب له

---

(1) يُنظر أمثلة على ذلك في كتاب: **فصول في الأدب الأندلسي**، حكمة الأوسي، ص186 وما بعدها.

(2) يُنظر: **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة**، ص342.

(3) **تاريخ الفكر الأندلسي**، بالنثيا، ص488.

(4) **فصول في الأدب الأندلسي**، حكمة الأوسي، ص185.

(5) هكذا ورد اسمه في **نفح الطيب**: 4/ 9 من غير زيادة، ولم أعثر على ترجمته فيما اطَّلعت عليه من المصادر الأندلسيَّة.

ورقة لا تزيد عن قوله: «أبو أميَّة بالباب» ثم دفع بالورقة إلى خادم الشلوبين، فلما نظر إليها نَوَّنَ تاءَ أميّة[1]، ولم يزد عن ذلك، وأمر الخادم بدفع الورقة إلى صاحبها، فلما نظر فيها أبو أميَّة انصرف، علماً منه بأن صاحب الدَّار قد صرفه، ولم يرغب في لقائه[2].

والقارئ يدرك أنَّ أميَّة من الأسماء الممنوعة من الصَّرف، ولكن سُرعة البديهة والتمكُّن من اللُّغة جعلت ابن حمدون يُدرك المَقْصد من صَرْف الكلمة، وهذا يعني صَرْف صاحبها.

والموقف الآخر الذي يستحقّ الذِّكر؛ هو شُعور الأندلسي بالخَجل إذا قصَّر في جانب من جوانب اللُّغة، وخاصَّة إذا حدث ذلك في مجلس من مجالس العِلْم، ومن أولئك أبو بكر الإشبيلي[3] الذي أقسم أنْ يُقيِّد رجليه بِقَيْد من حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ كتاب الغريب المُصنَّف في اللُّغة، وعندما دخلت عليه أمُّه وجدته مُقيَّداً بقيد من حديد ارتاعت، فقال:

ريـعــت عــجــوزي أن رأتــنــي لابــســاً
حــلــقَ الــحــديــد ومِــثْــلُ ذاك يَــرُوعُ
قـالـت: جُـنـنـت؟ فـقـلـت: بـل هـي هـمّـة
هــي عــنــصــرُ الــعــلــيــاء والــيــنــبــوعُ[4]

ولا بدَّ في ختام هذا المبحث من أنْ نستحضر قول عنان الذي يؤكد أنَّ شدَّة إعجاب الأندلسيين باللُّغة العربيَّة له دواعٍ وأسباب من بينها أنَّ المُتمكِّنين

(1) يعني: أنَّ أميّة اسم ممنوع من الصَّرف؛ أي: التنوين للعَلَميَّة والتأنيث اللَّفظي، فضبط الكلمة هكذا: أبو أميّةٍ.
(2) يُنظر: **نفح الطيب**: 4/ 9.
(3) هو أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض، كان شاعراً وشَّاحاً، أطاح دمه الزبير أمير قرطبة، يُنظر ترجمته في: **نفح الطيب** 3 صفحات متفرقة، 4/ 489.
(4) **نفح الطيب**: 3/ 489.

من عُلوم العربيَّة هُم وحدهم الذين يحظون بتعليم أبناء الأُمراء وحكَّام الدَّولة وأصحاب الثراء، ومن خِلال هذه الوظيفة نال العديد منهم جاهاً ودنيا عريضة[1].

المبحث الثالث
مؤلَّفات الأندلسيين في علوم العربيَّة

المطلب الأوَّل: كتب النحو

النُّبوغ في مجال اللُّغة العربيَّة دفع عُلماء الأندلس إلى التأليف في عُلوم النحو لكي تضبط قواعد اللُّغة، ويتيسَّر فَهم تراكيبها، وقد أسهمت هذه المؤلفات في تحبيب اللُّغة العربيَّة لكلِّ الطبقات الاجتماعيَّة، وخاصَّة بين أوساط المُتعلِّمين، ولم يترك أعلام اللُّغة فرعاً من فروع النَّحو أو ما يتعلَّق به إلَّا وكان لهم فيه كتاب. وقد وضعوا شُروطاً سبعةً لكُلِّ من يرغب في الولوج إلى عالم التأليف «وهي: إمَّا شيء لم يسبق إليه فيخترعة، أو شيء ناقص يتمّه، أو شيء مُستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أنْ يُخِلَّ بشيء من معانيه، أو شيء مُتفرق يجمعه، أو شيء مُختلط يُرتِّبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه»[2]، ويفتخر الأندلسيون بكَثرة التآليف في شَتَّى المعارف والعُلوم، وخاصَّة اللُّغة والأدب بحيث لو «طلب مثلها بفارس، والأهواز، وديار مضر، وديار ربيعة، واليمن، والشام أعوز وجود ذلك»[3].

وتذكر المصادر الأندلسيَّة العديد من أعلام النحو الذين أسهموا في تأليف كتب، أو شُروح نحويَّة، ومن هؤلاء الأعلام ابن خروف[4]، وابن

(1) يُنظر: **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، محمد عبد الله عنان، ص657 القسم الثاني.

(2) **نفح الطيب**: 3/ 176.

(3) نفسه: 3/ 177، والبلدان، والمدائن، والقبائل المذكورة كلها في الشرق.

(4) هو أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن خروف النحوي، يُنظر ترجمته في: **أعلام مالقة**، ص313، **وفوات الوفيات**: 3/ 84، **ونفح الطيب**: 3/ 455، **والمعجم المفصل في اللغويين العرب**: 1/ 484-485.

عصفور الإشبيلي[1]، وأبو علي الشّلوْبين، وابن السّيد[2]، وابن الطَّراوة[3]، وابن لُب[4]، وابن مالك[5] صاحب الألفية التي تُعتبر من أهمّ مصادر النحو العربي.

وكُلّ هؤلاء الأعلام ذاعت شُهرتهم بين أرباب اللُّغة في كُلّ زمان، ولهم شُهرة في النَّحو وتصنيف قواعد اللُّغة والصَّرف، والتوسُّع في مسائلها، والبحث في دقائقها، ومن ذلك ما قاله أحد الأندلسيين في حُروف الزيادة في الأفعال:

سـألـت الـحُـروف الـزائـدات عـن اسـمـهـا

فـقـالـت، ولـم تـبـخـل، أمـان وتـسـهـيـل[6]

وقال المقري صاحب النفح عن حُروف الزيادة: قد كنت جمعت فيها نحو مائة ضابط، وإنْ دَلَّ هذا على شيء، فإنّما يدلّ على سَعة التبحُّر في

---

(1) هو علي بن عصفور أبو الحسن، ولد بإشبيلية 597هـ ومات بتونس 669هـ، له العديد من المؤلفات في اللُّغة، وقيل في مدحه:

نـقـل الـنـحـو إلـيـنـا الـدؤلـي عـن أمـيـر الـمـؤمـنـيـن الـبَـطَـلِ

بـدأ الـنـحـو عـلـيٌّ وكـذا ختـم الـنحو ابنُ عـصـفـورٍ عـلـي

يُنظر ترجمته في كتاب: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، لأحمد بابا التنبكتي، ص335، و**نفح الطيب**: 1/ 185، و**فوات الوفيات**: 3/ 109، و**المعجم المفصل في اللغويين العرب**: 1/ 473.

(2) هو محمد عبد اللَّه بن السّيد البطليوسي، من مدينة شلب، ترجمته في **المغرب في حُلَى المغرب**: 1/ 385، و**نفح الطيب**: 1/ 185-643 وما بعدها.

(3) هو أبو الحسن سليمان محمد بن الطراوة المالقي النحوي، من مدينة المريَّة، له آراء في النَّحو تفرَّد بها، وأخذ عنه بعض أئمة النحو في الأندلس، لكن عامَّة النحويين لم يكونوا معه على وفاق؛ لسبب تلك الآراء، يُنظر ترجمته في: **المغرب في حُلَى المغرب**: 2/ 208، و**نفح الطيب**: 3 صفحات مُتفرِّقة، و**فوات الوفيات**: 2/ 79-80، و**المعجم المفصل في اللغويين العرب**: 1/ 279-280.

(4) هو فرج بن قاسم بن أحمد بن لُب التغلبي الأندلسي الغرناطي، ترجمته في **نيل الابتهاج**، ص357، و**الإحاطة**: 4/ 253.

(5) هو أبو عبد الله جمال الدِّين محمد بن عبد اللَّه بن مالك الجيَّاني، يُنظر ترجمته بالتفصيل في: **نفح الطيب**: 2/ 222 وما بعدها، و**الوافي بالوفيات**: 3/ 359.

(6) **نفح الطيب**: 3/ 455.

عُلوم العربيَّة، وخاصَّة نحوها، وفي موضع آخر من كتاب النفح بلغ عدد ضوابط حُروف الزيادة مائة وأربعة وثلاثين تركيباً[1].

ولغير المسلمين في بلاد الأندلس العديد من المؤلفات التي فيها ما يُشير إلى أنَّ هؤلاء المؤلفين من اليهود والنَّصارى قد استفادوا كثيراً مِمَّا كتبه أهل الأندلس في اللُّغة والأدب؛ حيث نسجوا على منوالهم كتباً تمسُّ اللُّغة العربيَّة بشكل أو آخر، ومن هذه المؤلفات كتاب اسمه **المِفتاح** ألفه ليفي بن التيَّان، في النحو العِبري إلَّا أنَّه كتب باللُّغة العربيَّة[2]، ومن أشهر الكتب العبريَّة التي أُلفت باللُّغة العربيَّة كتاب **دلالة الحائرين** ألَّفه موسى بن ميمون القرطبي، ومُعظم الآراء التي يحويها الكتاب أصلها عربي، ثم ترجمه إلى العِبريَّة، واللَّاتينيَّة، ولُغات أُوروبيَّة أُخرى[3]، كما ألَّف بدور ألفونسو، وهو يهودي من مدينة وشقة[4]، كان اسمه موسى بن سِفَرْدي؛ ألَّف كتاباً باللُّغة العربيَّة، عُنوانه: **تعليم رجال الدِّين** ثم ترجمه بنفسه إلى اللَّاتينيَّة، وفي الكتاب يورد المؤلف ثلاثاً وثلاثين أُقصوصة شرقيَّة.

المبحث الثَّالث: المطلب الثَّاني: كتب المجاميع الأدبيَّة

حِرصاً من الأندلسيين على حِفظ موروثهم الثقافي، وخاصَّة فيما يتعلَّق باللُّغة والأدب والتاريخ فقد شرعوا في تأليف كتب المجاميع التي تتَّسم بشموليَّة المعرفة.

كُلّ ذلك بسبب خوفهم من ضَياع ذلك الموروث بعد أنْ ضيَّق عليهم النَّصارى، إلى جانب إهمال المَشَارقة وبعض الأندلسيين ذلك الموروث، وقلَّلوا من شأنه، هذا ما أكَّده ابن بسام في مُقدِّمة كتابه الذخيرة؛ حيث قال: «وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حَسَنات دهري، وتتبُّع محاسن أهل بلدي

(1) يُنظر ذلك بالتفصيل في: **نفح الطيب**: 3/ 455 وما بعدها.
(2) يُنظر: **تاريخ الفكر الأندلسي**، **بالنثيا**، ص498.
(3) المصدر نفسه، ص502.
(4) وشقة: بلدة بالأندلس، ينتسب إليها طائفة من أهل العلم، **معجم البلدان**: 5/ 377.

وعصري، غيرة لهذا الأُفق الغريب أنْ تعود بُدُورُه أهلّة، وتُصبح بحاره ثماداً مُضْمحلَّة، مع كثرة أدبائه، ووفور عُلمائه»[1] ثم قال أيضاً: «لأنَّ أهل هذه الجزيرة - مذ كانوا - رؤساء خطابة، ورؤوس شِعر وكتابة»[2].

ومن كُتب المُنتخبات التي رصدت أفانين المعارف الأدبيَّة التي يجد فيها كُلّ قارئ مُتعشِّق للُّغة مُبتغاه، من حُلَى الألفاظ، وجمال النظم الرائق المُرتاض؛ كتاب الذخيرة لمؤلِّفه ابن بسام الشنتريني بأقسامه الأربعة، ومُجلَّداته الثمانية، ففي هذا الكتاب يجد القارئ مُتعة أدبيَّة، ولُغويَّة، وبلاغيَّة، ونقديَّة تؤكِّد صدق ما ارتآه مؤلفه عندما قال في افتتاحيَّة كتابه: «وقد كتبت لأرباب هذا الشأن "المنظوم والمنثور" من أهل الوقت والزمان محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشُّعراء والكتاب»[3].

كما يجد القارئ بين دفَّتي هذا المجموع إشارات لُغوية تدلّ على حُسن الاختيارات الشِّعريَّة النثريَّة لصاحب الكتاب، ومَقْدرته على استنباط قواعد اللُّغة العربيَّة، وتحليل مكنوناتها، والتعليق عليها بما يُفيد القارئ، وبعد نحو عشرين سنة من تأليف كتاب الذخيرة ألف ابن خاقان[4] كتابه القلائد، وهو كتاب يحوي فوائد كثيرة[5]. وقد عَقَد المُستشرق الهولندي آن دوزي مُقارنة بين كتابي الذخيرة والقلائد، وبيّن محاسن كُل كتاب من حيث الأُسلوب، والصِّياغة اللَّفظيَّة، والعِبارة الجزلة الرَّنانة ذات الإيقاع الجميل[6].

وقال ابن عاشور مُحقِّق القلائد: «على أنَّه جمُّ الفوائد لُغة وأدباً»[7]،

---

(1) **الذخيرة**، لابن بسام، 1/ 1/ 12.

(2) المصدر نفسه، 1/ 1/ 14.

(3) المصدر نفسه، 1/ 1/ 12.

(4) ابن خاقان هو أبو نصر الفتح محمد بن عبيد اللَّه القيسي، توفِّي قتيلاً، بمراكش سنة 528هـ، يُنظر: **نفح الطيب**: 1/ صفحات مُتعدِّدة، و**تاريخ الفكر الأندلسي**، ص297، ووردت ترجمة مفصَّلة في مُقدِّمة مُحقِّق كتابه **القلائد** محمد الطاهر بن عاشور.

(5) يُنظر: **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص295.

(6) يُنظر: المصدر نفسه، ص295.

(7) **قلائد العقيان**، لابن خاقان، صحَّحه وحقَّقه وعلَّق عليه محمد الطاهر بن عاشور، ص17.

وفي المُقدِّمة التي كتبها مؤلف الكتاب بيان عن أهمِّيَّة الأدب؛ حيث قال: «فإنَّ الأدب أجمل ما التحفته الهمَّة، وعرفته هذه الأُمَّة، فإنَّه مُطلق اللِّسان من عِقال، ومنطق الإنسان بصواب المَقَال»(1)، وإلى جانب ما في الكتاب من فُنون المنظوم في أغراض شَتَّى، يجد القارئ ألواناً من بدائع المنثور التي صِيغت في عِبارات تجمع بين الرِّقة والجَزالة ومدارستها تشحذ الأذهان بأفانين البيان.

ومن الكُتب الأُخرى كتاب **نفح الطيب** للمقَّري التِّلمساني، الذي فيه من كلِّ فنٍّ من فنون اللُّغة شواهد وأعاريب تهول الدَّارسَ وتشحذ ذهنه وتدفعه إلى مُحاولة فَهم تلك الطرائق العجيبة التي مكَّنت مؤلفه من جمع مادته، ومَقْدرته على تصنيفها في أبواب وفُصول تُشوِّق القارئ إلى التنقيب عن كوامنها، واكتشاف غوامضها، والذي تنبغي الإشارة إليه في هذا الجانب هو إذكاء هِمَّة البحاث، وخاصة ذوي الاهتمام باللُّغة العربيَّة؛ بأنْ يعملوا على دراسة هذا المجموع دراسة مُعمَّقة من أجل إعادة تبويب ما فيه من قواعد النَّحو، وإبراز آراء العُلماء في هذا الشأن، إلى جانب استنباط شواهد نحوية وبلاغيَّة تكون عِوضاً عن تلك الشواهد التي تَكرَّر ذكرها، وربَّما مجَّتها الأسماع من كَثرة الترداد، وصدق ابن بسّام إذ قال: «إنَّ كُلّ مردود ثقيل، وكُلّ مُتكرِّر مَمْلول»(2).

ولا نَنْسى في هذا المقام كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي(3)، وهو من أقدم الكُتب الأندلسيَّة في الأخبار والنوادر في بلاد الأندلس، ومن فوائد الكتاب أنَّه جمع بين دفَّتيه اختيارات من كُتب المَشارقة، وشيئاً مِمَّا كان للأندلسيين من أشعار وأخبار، وقد حدَّد ابن عبد ربه منهجه في تأليف كتابه؛ حيث قال: «وقد ألَّفت هذا الكتاب، وتخيَّرت جواهره من مُتَخيَّر جواهر

(1) **القلائد**، ص26.

(2) **الذخيرة**، لابن بسّام، 1/ 1/ 13.

(3) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم، ولد بقرطبة سنة 246هـ يُنظر: **معجم الأدباء**، 4/ 222، **ووفيات الأعيان**، 1/ 110، ومقدمة كتاب **العقد الفريد**.

الآداب، ومحصول جوامع البيان»[1]، وقد تعمّد التدقيق في الاختيار؛ لأنَّه يُدرك تمام الإدراك أنَّ اختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد مثَّل لذلك بشاهد شِعري، وهو:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ... ن دليلاً على اللبيب اختيارهْ

وقول أفلاطون: «عُقول الناس مُدوَّنة في أطراف أقلامهم، وظاهر في حسن اختيارهم»[2].

وفي كتاب الياقوتة نجد العديد من الموضوعات التى تتناول الأدب والبلاغة، والأمثال، وفي كتاب الزُّمرُّدة الثانية يجد القارئ نماذج من موضوعات تخصُّ الشِّعر، وكُلّ ما يتعلَّق به من أغراض وفضائل.

وممَّا لا شكّ فيه أنَّ هذه القضايا الأدبيَّة من منظوم ومنثور ترتبط ارتباطاً مُباشراً باللُّغة العربيَّة، وهذا يدل على أنَّ الأندلسيين مُنذ عهودهم المُبكرة كانت اللُّغة وما يتعلَّق بها شغلهم الشاغل.

الخاتمة:

من خِلال ما تمَّ عَرْضه في المباحث السَّابقة؛ تبيَّن الآتي:

1 - أنَّه بالرَّغم من ابتعاد الفاتحين عن منابع الفَصْحى في بلاد الشرق، واختلاطهم بشُعوب لا صِلَة لها بالعربيَّة؛ إلَّا أنَّهم حافظوا على هُويتهم العربيَّة والإسلاميَّة، وعملوا من جانبهم، منذ أنْ وطئت أقدامهم تلك البلاد على نَشْر اللُّغة والدِّين الإسلامي.

2 - إقبال النَّصارى وغيرهم من سكَّان تلك البلاد أو المُجاورين لها على تعلُّم اللُّغة العربيَّة بعد أنْ أدركوا أنَّ لُغة الفاتحين لُغة عِلْم وحضارة بما استوعبته من معارف في شتى العُلوم، ومنها عُلوم وآداب الرُّومان،

(1) **العقد الفريد**، 1/ 20.

(2) المصدر نفسه، 1/ 20.

واليونان من خِلال الترجمة، بالإضافة إلى ما أنتجه عُلماء المسلمين في ميادين المعرفة.

3 - أنَّ اللُّغة العربيَّة قادرة على استيعاب كُلّ المعارف، ولديها من المُفردات ما يُعبِّر عن كلّ علوم الدُّنيا، مهما تنوَّعت، لا فرق في ذلك بين طبِّها، وعمارتها، وفلسفتها، وآدابها، والقُصور عن ذلك إنَّما يعود في الأساس إلى أرباب اللُّغة أنفسهم الذين زعموا بغير عِلْم أو عن قصور في الفَهم أنَّ لُغتهم لا تواكب مطالب العَصْر، هذا ما يدَّعيه بعض المعاصرين، وأمّا أولئك الأعلام الشوامخ فقد أثبتوا من خِلال ما تركوه من نِتاج فِكري خِلاف هذا الادِّعاء الباطل، ومن أجل الإحاطة بكل ما في اللُّغة من دقائق وأسرار؛ تنقل العديد منهم بين حَلقات الدَّرس؛ من قرطبة وإشبيلية إلى بلاد الشام والعراق، مُروراً بمصر والمدينة ومكَّة المُكرمَّة، ومنهم من تواصلت سياحته العِلْميَّة أكثر من عشرين سنة، كُلّ ذلك بهدف سبر أغوار اللُّغة، والإلمام بكل ما فيها من محاسن.

4 - تأثير اللُّغة العربية في اللُّغة اللَّاتينيَّة كان قويّاً بحيث إنَّنا نجد لها حُضوراً فاعلاً في اللُّغة الإسبانيَّة إلى زمننا الحالي، هذا ما أكَّده العديد من المُستشرقين الإسبان الذين وضعوا معاجم لُغويَّة تتضمَّن نِسبة عالية من المُفردات العربيَّة التي ما تزال مُستعملة عند الإسبان في تعاملاتهم اليوميَّة، وفي آدابهم بالرَّغم من خُروج العرب والمسلمين من تلك الدِّيار منذ أزمان.

5 - إنَّ المؤلفات التي تركها الأندلسيون في مُختلف العُلوم الفلسفيَّة، والطِّبيَّة، والفلكيَّة، والجغرافيَّة، والرياضيَّة، بالإضافة إلى عُلوم الأدب واللُّغة والفنون لم تكد تستعير من اللُّغات الأُخرى شيئاً، بل صِيغت كُلّها في أساليب جَزلة لكنها تَسْحر الألباب، وهذا يؤكد أنَّ اللُّغة العربيَّة قادرة على مواكبة التطوُّر الحضاري شريطة أنْ يمتلك زمامها ذو لِسان عربيّ، له عقل متوقِّد، وقلم سيَّال.

6 - هذا البحث المُيسَّر يُحفِّز أذهان الباحثين إلى وجوب تَطَلُّب الأسرار التي جعلت من اللُّغة العربيَّة رائدة في كُلّ المجالات المَعْرفيَّة بحيث أقبل على تعلُّمها كبار القوم وصِغارهم من نَصارى ويهود، لا فرق في ذلك بين أحبار، وقساوسة، ورهبان، وقادة، وسياسيين، ورعيَّة، ومن خِلالها توصَّل العديد منهم إلى اعتلاء أرقى المَنَاصب حتى داخل الدَّولة الإسلاميَّة في الأندلس، وبها نظموا الأشعار، وكتبوا الأقاصيص، وألَّفوا الأسفار.